

التذكار الثوري

للمرسلين العازريين في دمشق

بقلم الاب مبارك ثابت اللباني

١

في شهر ايار من هذه السنة ، عيد المرسلون العازريون في دمشق عيد السنة الاولى لاستيطانهم هذه المدينة ، وقيامهم مع راهبات المحبة العازريات بخدمة الدين والعلم ، والمرضى والمساكين والايتام ، ومصالح الدمشقيين العائدة الى الرقي الروحي والادبي . مما بسط الالسن في الشناء عليهم ، وجعل لهم منزلة عالية في النفوس .

كانت حفلات العيد في اكل مجالي الابهة ، والطف مظاهر الرونق ، باقة اقصى غايات الترتيب والنظام ، جامعة لدواعي الفرح والابتهاج . ودامت ثلاثة ايام تلوّنت فيها الاعمال والمظاهر والافراح مما يوقظ التقوى في النفوس ، ويدخل السرور الى القلوب . فن تمثيل معجب ، الى انشاد مغرب ، الى سماع مطرب ، الى مآذب سخية ، الى زينة شائقة ، وخطب خيالية ، وعاضرات مليحة . فكنت ترى العيد بارذاً في حلة ابتهاج فاخرة مطوّق العنق بقلادة ظرف لامعة .

واقبل الناس من كل الطوائف الى دار الرسالة يهتفون المرسلين والراهبات بالعيد ، معربين لهم عما في صدورهم من عواطف الشكر لابناء القديس منصور الذين ما قشوا مسافة قرن مواظبين على خدمة الارواح والابدان ، تبديداً لظلمة الجهل ونشراً لانوار العلم ، وتخفيفاً من اعباء النوائب وارجاع النقر والاعتلال ، وتلافياً لسي غوائل اليتيم والاهمال . ومن شهدوا الحفلات ، او بعضها ، مع اعيان المدينة واهل التسلايمذ والتلبيذات ، الرؤساء الروحانيون ، وحضرة الوزير المفوض ، ورئيس المجلس النيابي وغيرها من ارباب الحكومتين المتدبة والوطنية .

ولما كان لابناء القديس منصور ولاسيما راهبات المحبة فضل لا يقوم عليه

نكيراً ، لما يكبدون انفسهم من ضروب التضحيات في سبيل الماكين والمثلين
اخوة المسيح لوجه الله الكريم ، لا نرى اننا نظيش سهماً اذا اعتقدنا كون قراء
«المشرق» الكرام يرتاحون الى قراءة نبذة نكتبها في تاريخ الرسالة العازرية في
دمشق ، يتسنى لهم بها الوقوف على تاريخ ابنية الرسالة ومنشأها الحيرية ، مائة
مئة عام ونيف ، في قاعدة الامويين القديمة . فنقول :

العهد الاول

١٧٨٣ - ١٨٢٧

تولّى العازريون الرسالة في دمشق سنة ١٧٨٣ ، وكانت من قبلهم للآباء
اليسوعيين . واول من قدم الشام منهم الابوان بطرس اتيان فيروت وجوزف ماري
غندولفي . فاقاما في دمشق يزاولان اعمال الرسالة المقدسة طول ايامها .
وتوفاهما الله الواحد بعد الآخر ، فكانت وفاة الاخير منها عام ١٨٠٥ . وكان
المرسلون العازريون حداثي الحلول في البلاد ، فشئت الثورات شلهم ولم تستقر
لهم قدم في سورية . فاقفلت اديارهم التي هي في الشام ، وصيدا ، وطرابلس ،
وعين طوره . ولم يبق مفتوحاً الا ديرهم في حلب . وقد ذاقوا فيه من ضروب
الاعنتات والتضييق والرمان المخاوف والمتاعب ما تهلع لهوله القلوب وتغشع لذكركه
الابدان . لكنهم اعتصموا بالله وتدرعوا الصبر ، فثبتوا عند الواجب غير مترعزين
ولا هيابين ، تعقياً للرسل القديسين الذين اقتحموا اشد المخاطر وازدروا العذاب
والشدائد والموت وكل قوات الارض والحجيم ، في سبيل نشر انوار الحق
وتوسيع ملك المسيح يسوع .

وظل دير الشام مقفلاً خالياً والرسالة معلقة الى سنة ١٨٢٧ . وفي تلك الحقبة
سمى المجمع المقدس الاب لوس غندولفي العازري زائراً رسولياً في سورية ،
وكان مشغولاً بالحماية الافرنسة ، ثم رُقي الى درجة الاسقفية وجعل قاصداً رسولياً
عام ١٨١٧ او ١٨١٦ . فكان يتهجد دير الشام مرة كل سنة او كل ثلاث
سنين ، فيرمم المتهدم منه حفظاً لكيانه ويؤتمل الشعب الكاثوليكي بقرب
رجوع المرسلين اليه . وله رسالة كتبها في الشام بتاريخ ٢٦ تموز سنة ١٨٢٠

واودعها شكواه واسفه من اقمار دار الرسالة واممال شوزن الكاثوليك في المدينة ونواحيها ، ووصف دمشق باجل النوت . ومما جاء في رسالته قوله : « اذا جاءني الاجل المحتوم ، وانا الآن على قيد خطوة منه ، ولم اخلف في الدير مرسلأ يتولى حراسته في الاقل ، فقد ضاع الدير وكل ممتلكاته ومشتلاته ، وهيهات ان يسترد ! » .

على ان القاصد الرسولي لم يظفر بمنته في ما رزقه من العمر بمد تلك الكتابة ، فوافته المنية خامس وعشرين آب سنة ١٨٢٥ ودفن في عين طوره . ومو القاصد الرسولي الثاني من المرسلين العازريين في البلاد السورية . امأ القاصد الاول منهم ، وهو اول قاصد رسولي في سورية ولبنان ، فكان الاب ارنولد بوسو فرنساوي من ابرشية اراس ، دخل جمعية المرسلين العازريين سنة ١٧٣٣ ، وصار قاصداً رسولياً سنة ١٧٦٣ . وكان في الجزائر فقدم منها الى لبنان ومعه اثنان من ابناء القديس منصور وهما الاب فكتور جليان والاخ لويس بيورت ، فجعل كرسي تصادته في صيدا في دير الاباء اليسوعيين حيث اقام مدة عشر سنين . وكان في كنيسة الروم الكاثوليك خلاف اذى الى انتخاب بطريركين في وقت يتنازعان السلطة ويدعي كل منهما شرعية انتخابه . فازال بحكته ذلك الخلاف واقترن حتى لاحدهما دون الآخر . فانحى الجدال واستتب السلام . ثم انه رجع الى باريس وفيها لبي دعوة الله بروت صالح عام ١٧٧٤ .

اما رسالة الشام فاشرفت على التلف لما نالها من الاهمال التام ، بعد وفاة لويس غندولفي القاصد الرسولي ؛ اذ لم يعد يفتقدها احد من المرسلين . وظلت على هذه الحال من الاقمار مستهدفة للخراب مدة سنتين ، الى ان قيض لها العناية الالهية التجدد على يد مرسلين من ذوي النيرة والنفطة والتقوى والنشاط هما الايوان بوسو ولروا . ارسلتهما اليها الجمعية فبانها دمشق عام ١٨٢٧ . فاقبلا يومان ما تهدم من بناها ويصلحان ما فسد من حالها ، ولم يعد المرسلون يحملونها منذ ذلك العهد .

وهذا العيد المشوي الذي احتفلت له الرسالة السورية في هذه السنة على ما رايت في ما سبق ، انما هو عيد تجديدها منذ مئة سنة ونيف على ايدي ذينك

المرسلين . وكان حقه ان يصير سنة ١٩٢٧ لانها تام القرن ، فأرجي الى سنة ١٩٢٩ لحلوله وفساة المرحوم الاب فيكتور غرو رئيس المدرسة السابق دون اقامة هذا العيد في ميقاته .

الدهر الثاني

١٨٢٧ - ١٨٦٠

كان الاب يوسو اول من ترأس الرسالة في دمشق عهد تجدها عام ١٨٢٧ . اخلته الشام في شهر تشرين الاول من ذلك العام . فاستقبله تمب وهم عظيمان . اما من جهة الدير فلأنه كان قد انتهى الى احط دركات الرثاسة . كيف لا يصير الى هذه الحال منزل هجره سكانه مدة خمس وعشرين سنة متتالية ، فلا ماوى يصلح للسكن ، ولا ماعون ، ولا ائاث . واما من جهة الشعب الكاثوليكي فلأنه كان في الشام ، في ذلك العصر ، زهاء الف اسرة من الروم الكاثوليك ، ومئة اسرة من السريان والارمن . وليس لطائفة من هذه الطوائف كنيسة . الا المواردنة لهم كنيستهم ، وعدددهم لا يتجاوز مئة وخمسين نسمة . غير انها اضيق من ان تسع سائر الطوائف الكاثوليكية الشرقية ، وان كانت مفتوحة للجميع . ولا يغرب ما هنالك من تغاير الطقوس .

فراى الاب يوسو ضرورة التشير في ترميم معبد الرسالة ، وكان في ذلك عوائق كثيرة وصعوبات متنوعة . فانبرى بذلها بعزيمة لا يتعاطفها امر ، وهمة لا يفوقها مطلب . فما زال دائب السعي على قدم النشاط ، حتى فتح ذلك المعبد للؤمنين في اقصر ما استطاع من الحين . وعكف على الوعظ والارشاد وشرح التعليم المسيحي ، وسائر اعمال الرسالة الروحية لا يأخذ في مهته ونى ولا يتوكل على راحة . ولا يقصر في العمل لاستقدام مرسلين يعاونونه على الحصاد الكثير ، ويتولون ادارة مدرسة في الرسالة حتى اظفره الله بعتناء .

ففي علم ١٨٣١ قدم المدينة الايوان بته ورتت ، فعرض عليها الحاجة الى المدرسة ، وهزما لهذا الامر فانشط له وحرفا من همها اليه وما ابطا ان ادركا بنيتها ، وتجددت في الدير المدرسة التي كان الدهر قد اخني عليها . ثم وجد الاب بته امرأة لبنانية تحسن القراءة والكتابة ، ففتح مدرسة للذكور

واقام المرأة لتدريسهن . ثم ضم اليها امرأة تحسن اشغال الابرة فكانت تعلم الحياطة والتطريز .

وخلا فكر الاب بوتر من شؤون الكنيسة والمدرسة في دمشق ، فراح ينشر كلام الحياة وفوائد الرسالة بين سكان راثيا وحاصيا . ولم يكن ثم مدارس ولا اهتمام بالتعليم الابتدائي ، فحسنت له غيرته الرسولية ان يبد هذا الحلل فما زال يسمى ويمهد حتى جهز لاسقف الجهة كل ما يحتاج اليه في تأسيس مدرسة لكل من البلدين . وهذه الماعى الرسولية اقتضت ان يسافر الى فرنسا ويقيم فيها برهة من الزمان . ثم جاء رومية واطلع قداسة الحبر الروماني والمجمع المقدس على احوال المسيحيين في دمشق ونواحيها وعرض بعض حاجاتهم الماسة ، فلقني عطفاً وآذاناً واعية . ورجع الى دمشق حاملاً لقب زائر في سورية عام ١٨٣٩ فاستأنف اعماله الرسولية قائماً بهمة الجديدة احسن قيام . وكان من افاضل المرسلين متهاكماً في مصالح الدين متجلاً بجلال الخير كثير الرافة بالمساكين . استقدم في السنة التالية الى فرنسا وطنه فألقت اليه النيابة العامة في الجمعية ، ثم المديرية الاولى عهداً كانت الرئاسة العامة على عاتق الاب اتيان .

اماً الابوان تسبه وباروزي فخلفهما في الرئاسة على دير دمشق الاب غويلر (Guillot) ، وكان لكرم اخلاقه وكمال مروءته وازدهار فضائله مجرباً جداً وذا منزلة عالية في عيون الجميع . وبلغ من شهرة الفضل والصلاح والتزاهة والصدق حدّ مخرب المثل فكان المسيحيون حتى المسلمون من اهل البلاد يجلفون بحياة « ابونا بطرس » وهو الاسم الذي يعرفونه به . نفع الدين والآداب بحبوبيته ورقة شأنه وبراعة فضيلته وقارف معاشرته ، كما افادهما بوعظه وتعليمه وغيرته .

وفي سنة ١٨٣٧ ، انتهى الى دمشق الابوان امايا وبابيه ، فاكب الاول على درس اللغة العربية ولاقى في ابتداء الامر صعوبات شاقة لكنها لم تثبط عزمه لمضاء مهمته . فلم يستكمل ستة اشهر حتى صار قادراً على شرح التعليم المسيحي بهذه اللغة في مدرسة البنات . وكان الاب بوتر . قد تقدمه في تعلم العربية ، وبلغ مثله ما توخاه من استطاعة شرح التعليم المسيحي ، لكنه ما

بلغ الغاية الا بشق النفس .

ثم ان الاب أمايا غادر دمشق بعد مدة يسيرة متوجهاً في اعمال الرسالة الى لبنان الشمالي . فحصل مقامه في زغرثا واهدن ، وتقرب من اسرة كرم ، والقيت اليه مهمة تثقيف يوسف بك كرم الشهير ، وكان في سن السادسة عشرة عام ١٨٤٨ . فأحسن تأديبه بالمعارف وعزّز قلبه في مبادئ التقوى ومحبة الوطن واتى في نفسه الفضائل المسيحية الراهنة .

وكانت مدرسة دمشق قد بلغت شأواً من النجاح والشهرة على قدر ما يُستطاع في ذلك الزمان مع كثرة العرائق والحوائل من قلة المدرسين والمدربات ، وقلة اكتراث الناس للعلم مع تتالي الاحداث وتقلبات الازمان . فمأ كسبه الاب كروزه عن هذه المدرسة قوله : « في ذلك العهد كانت مدرسة الشام التي يديرها المرسلون العازريون سائرة في سبيل التقدم مرضية السير والانتظام تعلم الافرنسية بشيء من النجاح بدليل ان تراجمة القنصليات في مدينتنا كلهم من متخرجها على التقريب . »

وكان ان القنصل الفرنسي رغب الى المرسلين في استقدام راهبات المحبة الى الشام ، لانفصاح مجال العمل هنّ في ذلك البلد الكبير الشديد الحاجة الى امثالهنّ . وحضّ المسيحيين على طلبهنّ ، فالحقروا في الطلب ، وسُيرت رسائل في ذلك الى الرئيس العام . فاستقدم الاب لروا الى باريس وفاوضه في انشاء دير للراهبات في دمشق اجابة نطلب القنصل والمسيحيين . فزّين له الاب لروا المشروع واطنّب في التثويت والترغيب وبالغ في بسط الحاجة وتبهيّن الامر وتسهيل السبل . فقررّ الرأي على ما أحبّ ، فرجع الى بيروت مكلاً سعيه بالظفر . وفي ٢٣ تشرين اول من عام ١٨٥٤ ، توجه الى الشام يصحبه الاخ نيقولا والجالية الاولى من راهبات المحبة وهنّ ست برناسة الاخنت بيكوت (Bicot) ، وقدمت معهنّ الاخنت جلاس ذات الشهرة البعيدة بمنشأتها الخيرية العظيمة في هذه البلاد ، ولاسيا مجودة رأيا وتوقد فهمها وغزارة فضلها وتهالكها في محبة الله والتقريب . في ذلك الزمان ، الذي بيننا وبينه مائة ٧٥ سنة ، لم تكن طريق المركبات تصل الشام بيروت . اما الطريق الذي تسلكه السيارات اليوم ،

وكان معروفاً بطريق الداليجانس ، فقد فتحت شركة افرنية عام ١٨٥٩ ، اي بعد سفر الراهبات الى دمشق بخمس سنين . فلزم القافلة ان تقطع تلك الشقة الشاسعة بين البلدين على ظهور الحيل والبغال ، مجتازةً جبال لبنان ، وسهل البقاع ، ومضيق ميلون (وادي القرن) ، واعالي انقيلبان ، في ممالك وعرة كثيرة العقبات والمنحدرات والمزالق والحفر . ولما انتهت القافلة الى شطوره ، اذا الاب غريلو رئيس الرسالة قد جاء للقائنا في ثلاثة عشر شاباً من نخبة أصر المدينة . فاستراحوا وابتوا . ثم استأنفوا السير تحرسهم ملائكة الامن في سلامة من كل خطر ومكروه ، إلا ما اصاب الراهبات من تعب الطريق ، حتى انتهوا الى دمشق في ٢٦ تشرين اول سنة ١٨٥٤ .

ا فكان لقدم ملائكة الرحمة فرح واعتباط عظيمان في المدينة . وجرى لمن استقبال شائق قام به قنصل فرنسة واسرته ، ورجال القنصلية ، وجمعٌ غفير ، من المسيحيين ، وواكبهن الى ديرهن باهبي بحالي المودّة والحلم .

وبعد اسبوع واحد لوصولهن باشرن اعمال المحبة المسيحية على دأبهن في كل بلد احلهن . فجعلن باكرة اعمالهن فتح مستودع عام في منزلهن . فلم يكده خبره يُذاع في المدينة حتى احتشد على بابها زهاء سبع مئة نفس الناس المعالجة والدوا . لما كان للناس من صحة الزكركن الى بنات المحبة والى جودة ادويتهن . فلما رأين كل هذا الازدحام استقدمن قواً من القنصلية الافرنسية يُجز الحشد ، ويميز الفقراء من المدّعين الافتقار .

وزادت بنات المحبة على توزيع الادوية ان جعلن يتعهدن بيوت الساكنين ، حاملات لهم اصناف التزيينات والمعونات .

وكان المرسلون العازريون قد انشأوا مدرسة ومثلاً للبنات ، وقلدوا التعليم فيها امرأتين من نساء البلد على ما رأيت في ما مضى . فتولت الراهبات ادارة المهديين ، وما هي إلا مدة بسيرة حتى فتحن ثلاث مدارس وثلاثة مشاغل تضم ٣٠٠ متعلمة .

ولبضمة اشهر تلت استكرار راهبات المحبة في الشام ، جيّ اليهن ينسب في احط درجات الإذقاع ، قبلتها عندهن بثابة يتيمة ، فاعتم ان جاء بعدها

تسع عشرة بنتاً أخريات ، ومن ثم تأسس ميم البنات .
وفي اواسط ايلول عام ١٨٥٩ ، كان دير الراهبات قد بلغ غاية قاصية من
النجاح وانتظام الشؤون ، بنيرة الاب لروا وحسن تدبيره واستقامة ادارته .
وبسعيه لدى الرؤسا . أسندت رئاسة الرسالة الى الاب ناجان ، فوسع نطاقها
واصدها درجات في سلم الرقي واحسن سياستها غاية الاحسان . وصارت
مدارس العازريين تدرّ لهم الارباع بما يجلهم في سعة من العيش ويصرفون
فاضله الى المساكين والمشاريع الخيرية .

غير ان هذا النجاح الباهر كان اسرع زوالاً من الظل واقصر عمراً من
كواكب الصباح . فانه لم تمض ثمانية ايام لفراغ الاخ نيقولا من صنع منجزه
لما تمّ من البناء ، الا اشتعلت فتنة السنة الستين التي اكتسحت بعض نواحي
سورية ، ودمرت اقلية من اقاليم جبل لبنان . وكان شوبها في الشام الساعة
الثالثة من مساء تلع تموز عام ١٨٦٠ ، فحبت ذيل الحراب على حيّ المسيحيين
باسره ، وتوضت كل ما بناه بجهد النفس وكذا اليدى المرسلون الافرتيون
من مباني المحبة الى المدارس الى بيت السكن . ولولا شهامة الامير عبد القادر
الجزائري ، لما نجا بارواحهم المرسلون ، ولا الراهبات ، ولا من في ديورهن من
يتامى ودارسات . فانه لساعة قبل اطلاق النار والحديد في حيّ المسيحيين ،
دخل على الامير كاتب اسراره . وقال له : « لقد اكتفت المسيحيين المخاطر
وامسى الموت منهم على قاب قوسين ، فهل فكّر سيدي في المرسلين والراهبات ؟
انك ان لم تسرع لاتقاذهم فانهم لا محالة هالكون . » فقام الامير لساعته
ونادى بضع عشرات من رجاله ، وامرهم ان يجيئوا الى داره بالبازيين
والراهبات واليتامى وكل من في منازلهم . ففصروا في ذلك وكانت الساعة الثانية
بعد الظهر . وهاجهم الثوار لبائسهم ، فلم يجروا على مس مخفوريهم باذى ؛
الا رجل من المسلمين تصدى لراهبة في الطريق ، فهوى عليه احد رجال الامير
بضربة سيف فقلت رأسه فخر صريعاً وحار عبدة ، ووقع خوف الجزائريين
على الجميع .